

سلسلة الدروس الرمضانية

الدرس العاشر: رمضان شهر صفاء القلوب وطهارتها من الشحناء والبغضاء

إن الشيطان لما طُرد من الجنة امتلاً غِلاًّ وُبُغْضاً لآدم وذريته، وأخذ عهداً على نفسه بإغوائهم وإشقيائهم؛ ومن أعظم وسائله في ذلك زرعُ الغلِّ والبغضاء في النفوس، وقد كان ذلك أول ذنب عُصي الله تعالى به في الأرض، وأدى إلى قتل ابن آدم الأول لأخيه.

واليوم ومع تسارع إيقاع الحياة وشدة تنافس الناس في أمور الدنيا شاع هذا المرضُ القلبيّ وانتشر، وأرهق أصحابه، وكدر معيشتهم، وأساء علاقاتِ الناس بعضهم ببعض؛ فقلّما ترى اليوم رجلاً وقد سلّم قلبه من الغلِّ والبغضاء؛ ومن مظاهر ذلك التقاطعُ والتهاجر والكرهية بين الناس والسخريةُ والحطُّ من أقدار الآخرين، وفي حين أن الناسَ يهتمّون بطهارة ظاهريهم وثيابهم وهيئاتهم، فإنّ القليل منهم من يهتمّ بطهارة قلبه وسلامته.

وصدق الفضيل بن عياض - رضي الله عنه - حيث يقول: الخلق ينظرون إلى ظاهرك، والخالق ينظر إلى باطنك، فاحذر أن تزين محل نظر الناس، وتقبح محل نظر الله جل جلاله ..".

ولقد امتدح الله أقواماً بأنهم يدعونه تعالى أن يطهر قلوبهم ويسلّمها من البغضاء والشحناء فقال: "وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا" [الحشر:10].

وأخبر سبحانه أنه لا نجاة يوم القيامة إلا لمن سلّم قلبه، وسلامةُ القلب تقتضي طهارته من الغلِّ والشحناء والبغضاء، يقول جل من قائل: "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" [الشعراء:88]، [89]. كما أنه سبحانه أتمّ النعمة على أهل الجنة بأن نزع ما في قلوبهم من الغلِّ وجعلهم إخواناً، ذلك أن الغلِّ يُشقي صاحبه ويتعدّب به، يقول سبحانه عن أهل الجنة: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ" [الحجر:47].

وبيّن سبحانه أنّ من مقتضيات التقوى حصول ذلك الصلاح في ذات البين وطهارة القلوب وسلامتها، فقال سبحانه: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ" [الأنفال:1].

إنّ سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامرةٌ بالنصوص المؤكّدة على أهمية طهارة القلوب وسلامتها من الغلِّ والشحناء والبغضاء، يُسأل عليه الصلاة والسلام: أيُّ الناس أفضل؟ فيقول: "كلّ مخموم القلب صدوق

اللسان"، فيقال له: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ فيقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هو التقي النقي، لا إثم ولا بغي ولا غلّ ولا حسد" (رواه ابن ماجه بإسناد صحيح).

ويقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً" (متفق عليه)، بل إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا" (رواه مسلم).

ويقول عليه الصلاة والسلام: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟" قالوا: بلى، قال: "إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين" (رواه أبو داود بإسناد صحيح).

ولقد وقفت مع نفسي وقفة وتأثرت كثيراً حينما قرأت حديثاً عن ليلة القدر في صحيح البخاري. عن عبادة بن الصّامِتِ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَجَ يُخَيِّرُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاخَى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: إِنِّي حَرَجْتُ لِأَخْبِرْكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ وَإِنَّهُ تَلَاخَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ"

قلت: رفعت أعظم ليلة بسبب شجارٍ وسبٍ وخصامٍ بين رجلين !!! فما بالكم بواقع الأمة الآن!!!!!!
لذلك أخبرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث كثيرة أن الشحناء والبغضاء والخصام سبب لمنع المغفرة والرحمات والبركات ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ فَيَقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا" (مسلم).

وعن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ خَلَقَهُ ، إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ. " [الطبراني وابن حبان وابن ماجه بسند صحيح].
وبين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ذلك يخلق الحسنات بل الدين كله فقال: " دَبَّ إِلَيْكُمْ ذَاؤُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِمَا يُنْبِتُ ذَالِكُمْ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ " [أحمد والترمذي بسند حسن].

فبادر أنت بالخير إذا عرض عنك أخوك وكن أنت الأخير ، فعن أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَحَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا؛ وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ ". (متفق عليه).

ولقد فقه الصحابة هذا الأمر العظيم، فإذا بهم يحرصون على تنقية قلوبهم وسلامتها، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: " كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَطَلَعَ

رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحِيَّتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّلَاثِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَأَحِثُّ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ قَالَ: نَعَمْ قَالَ أَنَسٌ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَوْمًا مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا حَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيْالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَفِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثُمَّ وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَارٍ يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَطَلَعَتْ أَنْتَ الثَّلَاثَ مَرَارٍ فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلِكَ فَأَقْتَدِي بِهِ فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ قَالَ فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَحْدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى حَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ: عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ" (رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح).

ولذلك روى عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه سئل: كيف كنتم تستقبلون شهر رمضان؟ فقال: ما كان أحدنا يجرؤ أن يستقبل الهلال وفي قلبه مثقال ذرة حقد على أخيه المسلم!!
فهيا إلى تنقية قلوبنا من الشحناء والبغضاء والحقد والحسد، وليحل مكانها التراحم والتواصل والحب، ولنفتح صفحة جديدة بيضاء نقية مع المتخاصمين والمتشاحنين؛ حتى تُرفع الأعمال إلى الله؛ وتنزل الرحمات؛ ولا تحجب بسبب الخصام والشحناء؛ ويعاهد كل واحد منكم ربه أن يخرج من هذا المسجد ويبدأ هو بالمصالحة والعفو والصفح؛ ليكون أفضل الناس وأخيرهم عند الله!!

كتبه : خادِم الدَعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

د / خالد بدير بدوي